

ترجمة موجزة للشيخ سيدي الحاج محمد بلكبير

بسم فضيلة الشيخ الحاج عبد الكريم مخلوفي



الحمد لله رب العالمين، علم الإنسان ما لم يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نوه بشأن العلماء ورفعهم مكاناً علياً، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾⁽¹⁾، وأشهد أن سيدنا ومولانا وعظيمنا محمد عبده ورسوله القائل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فمّن أخذه بحظ وافر»، اللهم فصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته، السالكين سبيله إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

هذه وقفة مع مسيرة الشيخ أثناء تحصيله للعلم، وما واكب ذلك من رحلات وتواصل، وأثناء أدائه لواجب التعليم والتربية والإمامة في مختلف المحطات التي رسمت مسار حياته حتى انتقل إلى جوار ربه.

إن شيخنا سيدي محمد بن الكبير العالم الفقيه الزاهد الورع كانت حياته مثالا لطالب العلم المجدد، وللعالم ذي العطاء الذي طلق التواني، وحرّم على نفسه التسويف.

(1) سورة المجادلة/11.

ولد المحروس بعناية الله، المرحوم سيدي محمد بن الكبير سنة 1911م بالغمارة قرية من قرى بودة، التي تقع غرب مدينة أدرار، من أسرة شريفة القدر، مشهورة بالعلم والمعرفة، حيث كان والده رحمه الله من حفظة كتاب الله، وكان عمه إماماً ومعلماً بمسجد القرية، وكان خاله فقيهاً ورعاً، وفي هذا الجو المفعم بعبق العلم نشأ شيخنا الجليل، فحفظ القرآن الكريم، والمبادئ الأولية في الفقه واللغة العربية في سن مبكرة، ولما كان من أصحاب الهمم العالية والكبيرة تآقت نفسه الكبيرة إلى الاستزادة من العلم والمعرفة.

وما إن ناهز البلوغ حتى انتقل به والده رحمه الله إلى بلدة تمنطيط التي كانت عاصمة العلم آنذاك بإقليم توات، حيث تلقى فيها ما قدر له من العلوم الشرعية والعربية: من توحيد وفقه وحديث وتصوف وتفسير وآداب ونحو وصرف على يد العلامة الشيخ سيدي أحمد ديدي: عالم وقته ومصباح زمانه رحمه الله، فمكث عنده ثلاث سنوات كانت بأيامها ولياليها ميداناً فسيحاً للعمل المتواصل، تقدر حصيلتها بثلاثين سنة؛ لأن مواهب الله لا توزن بمقاييس ولا تقدر بأزمان، حيث انتهى شيخنا في هذه الفترة الوجيزة من دراسة الفقه المالكي بالأمّهات، والتوحيد بالأدلة والبراهين، مع سرد وشرح صحيح البخاري، وأثناء هذه المرحلة كانت له اتصالات عديدة بعلماء وقضاة المنطقة مثل سيدي عبد الكريم البلبالي الفقيه، والشيخ بوعلام "بملوكه"، والشيخ القاضي سيدي محمد بن عبد الكريم البكري ابن عم سيدي أحمد،... وغيرهم من علماء الإقليم للمذاكرة معهم، والاستفادة منهم، والبحث عن المشكلات العلمية التي قد لا يتمكن من مراجعة الشيخ فيها.

سافر شيخنا إلى مناطق عدة من الوطن وخارج الوطن، معلماً ومتعلماً، مفيداً ومستفيداً، مثل جامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، والأزهر بمصر،

وترك بصمات لا تمحى بعوامل الزمن في كل من المشرية، ولعريشة، وتيميمون، وأدرار. فعمل في ميدان الدعوة إلى الله أزيد من نصف قرن. حيث كان ارتحاله إلى قرية العريشة، ثم المشرية بطلب من أهلها ليعلمهم القرآن وعلوم الشريعة، فلبى طلبهم، وانتفض بتعليم البنين القرآن الكريم والعلوم الشرعية خمس سنين، قضاهما بجد واجتهاد وتفان، كللت جهوده بما خلفه من بعده من أئمة ومعلمين حملوا من بعده رسالة التعليم وإمامة المساجد والجماعات، ثم رجع إلى مسقط رأسه بطلب من والده بعدما كبر سنه.

وخلال استقراره ببودة، كان يقوم بوظيفة التعليم والوعظ والإرشاد، وارتحل إلى مدينة تيميمون بطلب من أعيانها فافتتح بها مدرسة لتعليم القرآن وعلوم الشريعة، وكان طليعة طلابه تجار مدينة تيميمون حينها، كان يقوم بتدريسهم صباحا، ثم يتفرغ للأطفال يحفظهم القرآن ويدرسهم العلوم الإسلامية بحسب سنهم ومداركهم العقلية، ولما استجدت ظروف حتمت عليه العودة إلى مسقط رأسه فقل راجعا إليها، وبها بدأ عمله التعليمي من جديد، وبعد عامين قضاهما هناك بها استدعي من طرف أعيان مدينة تيمي أدرار حاليا للقيام بمهمة الإمامة والتعليم القرآني، فلبى طلبهم، وذلك في حدود سنة 1371هـ/1950م، فقام رحمته الله بمهمة الإمامة، وتولى الخطابة والتعليم القرآني بالجامع الكبير، ثم أنشأ المدرسة الدينية، وهذه المحطة كانت محطته الأخيرة التي سمحت بتشييد صرح ديني وعلمي، بدأ ينمو تدريجيا متخذا من المسجد والمدرسة وعاء احتضن الطلبة من كل أنحاء الوطن ومن الخارج خاصة (ليبيا ومالي والنيجر وموريتانيا).

احتوت المدرسة في عهده في بعض الأعوام ما يربو على 1200 طالب في نظام تربوي داخلي وخارجي.

أيها السادة الكرام: انتهت إلى الشيخ رحمته الله رياسة العلم، من المذهب المالكي ارتوى، وعليه بنى أسس تدريسه، وسعى إلى نشره وتطبيقه آخذاً من كل قصر وبلدة وولاية زهرة سقاها برحيق مذهب أهل المدينة، فكان طلبته سفراء أسسوا دعائم الوسطية والاعتدال، والتعليم والإصلاح أينما حلوا وارتحلوا، وأقاموا للعلم مدارس هي اليوم عامرة بفضل الله ترسم مسارها وفق ما رسمه الشيخ من منهج للتعليم والتدريس، وفي صمت عديم النظير، بعيداً عن الأضواء، شعاره «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه». أثمرت حياته معلماً ومرشداً ومربياً ومواصلاً ليله بنهاره لا يمل إلى أن وافته المنية في يوم 2001/09/15م رحمته الله، تعالى تاركاً للأمة صرحاً علمياً شامخاً، وآلاف الأئمة في مختلف أنحاء المعمورة داخل الوطن وخارجه، يمثلون رمز الاعتدال والوسطية في التصور والاعتقاد.

